جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - قسم التاريخ

أستاذ المادة: د/ سمير مزرعي السنة الثانية ليسانس

أوضـــــاع بـــــلاد المغــرب قبـل الفتـــح الإســـــلامي

1- جغرافية بلاد المغرب:

أطلق هذا المصطلح على جميع البلاد التي تلي غرب مصر إلى غاية المحيط الأطلسي بما فيها أفريقية الشمالية، فقد كان الإغريق يسمون الجزء الشمالي منه "ليبو" أو "لوبيا" أو "ليبيا"، فيما كانوا يسمون الصحراء بلاد الأحباش السود، ولفظ أفريقية (Africa) أطلقه الرومان قديما على الإقليم الذي يقابل الجزء الشمالي الشرقي من البلاد التونسية، وهو يشتمل على قرطاجة وما حولها من نوميديا.

أما فيما يخص مصطلح "المغرب" فهناك عدة تعريفات وردت في كتب الجغرافيين المشارقة، فيذكر ابن حوقل في أنه يمتد "من مصر وبرقة إلى أفريقية وناحية تنس إلى سبتة وطنجة"، ويجعل المقدسي حدود المغرب "من مصر إلى السوس الأقصى وجزيرة صقلية والأندلس، أما ياقوت الحموي فيحدد أفريقية ويجعل ضمنها المغرب بقوله:" أفريقية إسم لبلاد واسعة وملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية وينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس" أما مصطلح "شمال أفريقا" فهو مصطلح عام لم يظهر إلا حديثا وهو يرادف لمصطلح (المغرب) التي استعملها الجغرافيون والمؤرخون العرب، وذلك لوصف المناطق التي تمتد من الحدود الغربية لمصر إلى حدود شواطئ المحيط الأطلسي بالمغرب الأقصى، وبعد الفتح الإسلامي لهذه المنطقة تغير مدلول الكلمة وأصبحت تعني "المغرب الإسلامي" التي تشمل: (المغرب الأدنى، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى)، وهناك من يرى بأن الأندلس تدخل هي الأخرى ضمن حدود المغرب الإسلامي وهناك من يرى عكس ذلك.

وهناك عدة روايات حول تسمية أفريقية وتسمية أهلها بالأفارقة، فتقول الرواية الأولى أنها سميت بذلك تيمنا بأفريق بن إبراهيم عليه السلام من زوجته الثانية (قطورى)، وقال آخرون أن أهلها تسموا بالأفارقة لأنهم من ولد فارق بن مصريم، وقد زعموا أنها تنسب إلى امرأة تسمى أفريقية بنت يافوه بن يونش الذي بنى مدينة منفيس بمصر، وحظيت هذه المرأة بملك أفريقية فسميت باسمها، وورد أن "أفريقش بن قيس بن صيفي (وهو من الملوك اليمنيين العظماء) لما غزا المغرب وأفريقية وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار وبإسمه زعموا سميت أفريقية لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك، وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر، والبربر بلسن العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة، ومنه يقال بربر الأسد إذ زأر بأصوات غير مفهومة".

2- أصل سكان بلاد المغرب:

يكاد يكون هناك إجماع بين المؤرخين بأن البربر هم السكان الأصليون لبلاد المغرب، فهم يمثلون الأكثرية من تركيبته الاجتماعية، ولفظ البربر (Barbari) أطلقه الرومان على سكان بلاد المغرب باعتبارهم عجم وغرباء، كما أطلقوا إسم المور (Maures) على سكان موريتانيا (طنجة)، وينقسم البربر إلى قسمين:

أ- البتر: هم سكان البوادي ويعيشون على الرعي والزراعة والصيد ومن قبائل البتر نجد كل من: ضريسة، أداسة نفوسة، لواته، زناتة، مغراوة، جراوة، بني يفرن، بني زيان،...إلخ.

ب- البرانس: هم سكان الحضر المتأثرين بالحضارة اللاتينية منذ الوجود الروماني مرورا بالوندال إلى البيزنطيين، ومن أهم قبائل البرانس نجد كل من: صنهاجة كتامة، مصمودة، أزداجة، أوربة، أوريغة...إلخ.

وترى بعض المصادر التاريخية أن قبائل البرانس تمثل ثلثي القبائل البربرية ففي رواية لابن خلدون عند حديثه عن قبائل صنهاجة يقول: "هذا القبيل من أوفرق قبائل البربر، وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد وما بعده، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من لناس أنهم الثلث من أمم البربر"، وعند حديثه عن قبيلة صنهاجة وأصلها فإنه يذكر بأن نسبهم "من ولد صنهاج وهو صناك بالصاد المشمة بالزاي والكاف القريبة من الجيم، إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج وهو عند نسابة العرب من بطون البرانس من ولد برنس بن برّ".

وقد اختلف كثيرا في أصل البربر فمن النسابين العرب من يرجعهم إلى ذرية نقشان (أو يقشان كما في التوراة) بن إبراهيم عليه السلام، وقيل أن أصلهم من لخم وجذام كانت مواطنهم بفلسطين، وأخرجهم منها بعض ملوك فارس، فلما وصلوا إلى مصر منعتهم ملوك مصر من النزول، فعبروا النيل وانتشروا في البلاد، وقال بعضهم أن طوائف من البربر إدعت أنهم من ولد النعمان بن حمير من سبأ بحيث أن هذا الأخير استدعى أبناءه ورغبهم في عمارة بلاد المغرب، فبعث لمت أبا قبيلة لمتونة، ومسفو أبا قبيلة مسوفة، ومرطا أبا قبيلة هسكورة، وأصناك أبا قبيلة صنهاجة، ولمط أبا قبيلة لمطة، وإيلان أبا قبيلة هيلانة، وأجانا أبا قبيلة زناتة، فنزل بعضهم بجبل درن، وبعضهم بالسوس وبعضهم بدرعة"، ويرى بعض المؤرخين أنهم من قوم جالوت وبعد أن قتل على يد داوود عليه السلام تفرقوا في البلاد وغزا بهم أفريقش المغرب ونقلهم من سواحل الشام وأسكنهم أفريقة وسماهم بـ "البربر".

وهناك من يرى بأنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام، وقد أيد هذا الرأي القديس اوغسطين الذي نسب مجتمعه الأمازيغي إلى الكنعانيين أيضا، حيث كتب في أحدى رسائله قائلا: "إذا سألتم فلاحينا عن أصلهم؛ فسيجيبون: نحن كنعانيون"، وهناك تصنيف علمي قام به كل من الباحث برتولون (Bertholon) وشانتر (Chanter)، يحددان فيه أجناس البربر التي عاشت في شمال أفريقيا، بحيث خرجا سنة 1913 بـ 1532 ملاحظة دقيقة تثبت بما لا يدع مجالا للشك أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: وهو قصير القامة، مستطيل الرأس، متوسط الأنف، أسود الشعر، بشرته فيها صدأة وصبغها أحمر يضرب إلى السمرة.

الصنف الثاني: وهو قصير القامة، بيضور الرأس، دقيق الأنف يمتاز بالطول، أسود الشعر، في عينيه دكة، في بشرته صدأة صبغها ضارب إلى الصفرة.

الصنف الثالث: وهو طويل القامة، مستطيل الرأس، دقيق الأنف يمتاز بالطول، أشقر الشعر، أزرق العينين، أبيض البشرة وردي اللون، ومن هذا النوع كذلك تنحذر منه بعض الأصناف الأخرى، كأصحاب البشرة الداكنة كالزنوج وأهل الواحات.

3- الأجناس التي استوطنت بلاد المغرب:

❖ **الشعوب الأمازيغية:**

- الليبيون: هو إسم لإحدى القبائل الليبية القديمة، وقد سجلت بعض الوثائق المصرية القديمة (نارمير) إنتصارات فرعون عليهم وتسميهم النصوص ب (التيهنو) أو (التحنو) Tehenou ويرى معظم الباحثين أنهم كانوا يسكنون منطقة برقة الحالية وأنهم ينقسمون إلى قبائل مادغيس الذين كانوا يعيشون في النصف الشرقي من ليبيا، والبرانس كانوا يعيشون في الجزء الغربي منها، وقد ظهر إسم (التحنو) في أقدم مدونات النيل خلال الأسرة الأولى (3400-3200 ق.م) وذلك في عهد الملك نعرمر (مينا) الذي وحد منطقة النيل، وهناك لوحة فرعونية لفنان مصري تصور زعماء القبائل الليبية سنة 1300 ق.م عثر عليها في ضريح الفرعون (سيتي الأول) من الأسرة التاسعة عشر، وقد انتشرو في واد النيل وغربه خلال الألف الرابعة قبل الميلاد (4000 ق.م)، فالنصوص التي أوردها المؤرخ اليوناني هيرودت تؤكّد ذلك حيث يقول: "هكذا يكون البدو الرعاة الليبيون من (إجبتيوس) حتى بحيرة (تريتونيس) أكلة لحم وشاربي لبن، ولا يأكلون لحن إناث البقر مثلهم مثل (القبط)، ولا يربون الخنازير".

ويضيف في نص آخر قائلا: "أما إلى الغرب من بحيرة تريتونيس، فإن الليبيين لا يكونون بدوا رعاة، لا يمارسون العادات نفسها، ولا يفعله ما يفعله البدو لأولادهم، بعد ان يبلغ أطفالهم الأربع سنوات، يكوون عروق رؤوسهم، وكثير منهم يكوون عروق أصادغهم بإستعمال دهن صوف الغنم، وذلك حتى لا يستمر نزول البلغم من الرأس طيلة الوقت، ويلحق بهم الضرر، ولهذا يقال أنهم أصحاء جدا، وفي الحقيقة يكون الليبيون أصح الأقوام الذين نعرفهم، وليس بإمكاني القول هل يكونون أصحاء لهذا السبب، وعلى أية حال يكونون أصحاء جدا، وإذا ما أصاب الأطفال ألم أو تشنج من الكي فإنهم قد وجدوا لهم علاجا، وذلك بأن يسكبوا عليهم بول جدي الماعز، وأنا أقول ما يقوله الليبيون أنفسهم".

- قبائل التمحو (Temehu) التمهو، خلال الألف الثالث قبل الميلاد (3000 ق م) حسب الوثائق القبطبة، لعلهم أوا التمهاك، الطوارق الحاليين.
- قبائل ليبو، ريبو (Libu, Rib)، الألف الثانية قبل الميلاد (2000 ق م) حسب الوثائق القبطية.
- قبائل مشوش (Meshwesh) خلال الألف الأولى قبل الميلاد (1000 ق م) ومنهم الفرعون شيشنك.

وقد أوردت المدونات المصرية أسماء قبائل أمازيغية أقل شأنا أو أبعد تاريخا مثل "قبط" التي ذكرت في الميثولوجيا الإغريقية عن بلاد لوبيا ب "إيكيبان" Egypans، وذلك يؤكد أن بعض القبائل الأمازيغية استوطنت وادي النيل.

❖ **العرب:** تألف المغرب بعد الفتح من عناصر عربية مختلفة، فقد شكل العرب اليمانيون المضريون الغالبية من العرب الساكنين لبلاد المغرب، وكان يطلق عليهم "عرب المغرب" أو "العرب البلديون" أو "العرب الأفارقة"، ولقد كان هؤلاء من أوائل العرب الفاتحين، حيث أنهم استقروا بالقيروان بعد تأسيسها سنة 50ه/675م على يد عقبة بن نافع، وقد قاسمهم العرب القيسيون المساندين للحكم العربي الأموي والعباسي تحت قيادة زعيمهم (محمد بن يزيد القيسي) إستطان تلك الأرض، وقد شهدت بلاد المغرب العديد من هجرات العرب القيسيين بعدما قام الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك تعيين (عبيد الله بن الحبحاب) واليا على المغرب باعتباره قيسيا، حيث أعاد سيادة العرب القيسيين، وطوال تاريخ المغرب الإسلامي توافدت جموع العرب إليه وعرفت ب "الطوالع العربية" من عرب الحجاز واليمانيين مع موسى بن نصير، أما الطوالع الآخرين فقد عرفوا ب"عرب الشام" تحت قيادة (كلثوم بن عياض القشيري) وكانوا ينافسون العرب البلديين على تقسيم الأراضي والحصول على كثير من الامتيازات.

4- المغرب تحت الحكم الروماني والبيزنطي (146 ق م-709م):

مع سقوط قرطاجة سنة 146 ق م سيطر الرومان على بلاد المغرب وأطلقوا إسم أفريقية (Africa) على ولايتهم الجديدة التي ضمت قرطاجة ومن حولها ثم بسطوا نفوذهم على ساحل شمال أفريقيا وقسموها إلى ثلاث ولايات:

- أفريقيا Africa (أي تونس).
- نوميديا Numide (شرق الجزائر).
- موريتانيا Mauretaine (غرب الجزائر وشمال مغرب).

سيطر الوندال على بلاد المغرب (429-533م) وهم من قبائل التيوتون الجرمانية التي خرجت من شواطئ البلطيق وأراضي الراين والدانوب، وهاجروا إلى إسبانيا سنة 409م وقد عبروا المضيق إلى المغرب بقيادة جنسريك (Genserie) سنة 429م وسيطروا عليه بعد انسحاب الرومان سنة 439م.

سيطر البيزنطيون على بلاد المغرب سنة 533م بقيادة بليزاريوس (Belisarios) في عهد جستنيان وأطلق عليه إسم (Africa) عاصمتها قرطاجة وعين حاكما عاما يقيم في العاصمة يدعى سولومون (Solomon) 534-543م، وقام البيزنطيون بتقسيمها إلى سبعة أقاليم بغية إمكانية التحكم فيها وتسييرها وهي كالآتي:

زيجيتان (مركزها قرطاجة)، بيزانسين (Byzancéne) في الداخل، وطرابلس (Tripolitaine)، ونوميديا (Numide)، وموريتانيا الأولى (Mauretaine) ومركزها سطيف بالجزائر، وموريتانيا الثانية القيصرية (Cesarea) مركزها شرشال، وموريتانيا الطنجية عاصمتها سبتة، وقد تولى حكم كل منطقة حاكما يسمى (دوق) وجيشا عسكريا يتولاه قائد أعلى يسمى (Magister Militum) وأقاموا خطا دفاعيا يسمى ليمس (Limes).